الاغتراب في حياة و شعر مبارك جلواح

إعداد الأستاذ جاب الله أحمد
رئيس فرقة بحث
شعر الشعراء المغمورين المعاصرين في الجزائر

إن الاغتراب الشعري والحياتي للشاعر يعود إلى عوامل ذاتية وموضوعية ، وعوامل روحية ومادية متداخلة ، كما أن قهر الاغتراب كإمكانية ، يرتبط -بسلسلة- من العوامل الذاتية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ويمكن أن نجمل عوامل الاغتراب في عاملين أساسيين:

1- الاغتراب الناجم عن طبيعة الشعر، لأن كل شعر هو تدافقات صورية، لا محدودة ، وتخليقات شعورية ولا شعورية تأتي في لحظة غياب الشاعر عن واقعه الحسي. فكل شعر- إذن - نوع من (العلو) المغترب في وقت الخلق الشعري.

2- أما العامل الثاني فهو يوحد جميع الظروف المادية والأسباب الشخصية والعامة المؤدية إلى الغربة والمعاناة الدائمة، بلا شك، إن هذه الظروف والأسباب تلعب دورا كبيرا في تغذية مضامين الشعر، وتحديد اتجاه الشعر، أو تغييره وتتداخل العوامل تداخلا معقدا، إلى الحد الذي تصبح فيه عملية فرز الأسباب الرئيسة عن العوامل الثانوية في تحديد نوع المؤثرت (المغرّبة) من أشقّ العمليات التحليلية . لأن نفس الشاعر المرهفة ، والشديدة الحساسية ، تكبر فيها الانفعالات أو تصغر، خارج إمكانات القياس الاعتيادية . فاستجابات الشاعر، وردود فعله، ليست بالأمر الذي يسهل تعيين حدوده.

لذلك يمكن القول إن ثمة عوامل صغيرة جدا، أو غير معروفة ، أو لا شعورية (غير معروفة حتى من قبل الشاعر نفسه) قد تكون محرّضا فعالا في تقرير اختيارات الشاعر، وانتهاجاته السريعة أو طويلة الأمد. ومن الثابت أن الأسباب اللاشعورية تسهم إسهاما كبيرا في تكوين جانب كبير من جوانب العالم الشعري، سواء أكان ذلك في المضمون أو في الشكل.

ومع أن (الشعر) يأتي من الشعور، إلا أن (اللاشعور) يتعهد بصياغة أهم ما في الشعر، إذا ما فهمنا الشعر بمعناه الحقيقي كشعر.

والشاعر جلواح أنموذج الشاعر المبدع الذي سقى روضه بالاغتراب العميق، وبعيد الغور، والمتجذر في النفس، وفي الزمام، وفي المكان ، وتبرز الغربة في حياته التي تقسّمتها التعسات عبر الحرمان من الوطن، ومن الأهل، ومن الحبيب،مثلما تتجلى الغربة في شعره عبر مئات الصور الشعرية الحزينة، والرثائية، والبكائية للوجود وللنفس. ويعود اهتمامي بهذا الشاعر إلى ما لاحظته من خلال ما تناوله كل من الأستاذ عبد الله الركيبي والأستاذ رابح دوب، والأستاذ عبد الرحمن مشنتل ، إلى جانب إشرافي على بحث في هذا الموضوع للطالبتين سميرة رحماني وخوخة رحماني تناول مبارك جلواح وشعره. من هنا ارتأيت أن أوجز أهم النقاط المتعلقة بحياة الشاعر وشعره في هذا العرض المركز والمختصر.

أ/ الاغتراب في حياة الشاعرمبارك جلواح:

ولد مبارك بن محمد جلواح بقلعة بني عباس قرب أقبو بولاية بجاية من أصل يرجع إلى أولاد ماض بالمسيلة وكانت ولادته حسب ما جاء في رسالة الخطبة التي كتبها بوكوشة[1]سنة (1908م) ، في حين يذكر رزاتي

عـبد العالـي أن الشاعر ولد عام (1910) ، وهو خلاف لا يؤثر في تاريخ حياة الشاعر الفنية على الأقل.

ولعل الرأي الثاني يسنده أن المروي عنه يحتفظ بديوان الشيخ (عبد الرحمـن)[2] وهـو معاصـر للشـاعر. غير أن كاتبا آخر وهو (أحمد بن عاشـور)[3] عرض لسيرة الشاعر باختصار في جريدة البصائر تحت عنوان "الشـاعر مـبارك جلـواح وجمعية التهذيب"، ولم يشر فيه إلى تاريخ ميلاد الشاعر، ولكنه ساق معلومات أخرى مهمة لها علاقة بنهاية الشاعر وبدوره الإصلاحي في باريس.

يقـول أخوه عن الفترة السابقة: «فقيدنا الأديب قد عاش مع أخوته في أسرة واحدة يشرف عليها والد رحيم، وتدير شؤونها والدة حنون، وله مكانة عند الوالدين، لم تكن لغيره. وكان بيننا كالولد المدلل محاطا بالرعاية والعناية في جميع شؤونه الحيوية لصغر سنه إذ هو آخر ما رزق الوالدان من أولاد ولما كان يظهر عليه وهو في العقد الأول من عمره من النشاط وخفة الروح والنـباهة وقوة الذاكرة والوقوف عند الحد الذي عين له، والامتثال لما يلقى إليه من الأوامر لذا كان محبوبا في الأسرة كلها ، وفي العشيرة يذكر بالخير ويتمنى له مستقبل زاهر وحياة سعيدة».[4]

و يبدو أن الشاعر قد نشا في بيئة متدينة محافظة شأن كثير من رجـال الحركة الإصلاحية في وقته، فقد كان والده من علماء عصره، ومن تلامـيذ الشـيخ (عبد القادر الميجاوي) [5] فتعلم القرآن و تلقى دروسه في العلوم اللغوية والدينية على يد والده ، ويظهر أنه لم يستفد كثيرا من دراسته في تلك الحقبة من تاريخ حياته.

وشاءت الظروف أن يعيش الشاعر مرحلة أخرى أفادته في حياته الثقافية والأدبية وأثرت في نفسه تأثيرا اعترف به من أشار إلى حياته، وهي الفترة التي شب فيها عن الطوق وأجبر على الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي مثل الجزائريين من أترابه وكان ذلك في أواخر العشرينات أي بين (1928-1929) ولم يبق في سطيف سوى أربعة أشهر ثم أرسل إلى المغرب.(6)

فقد أتيح له أن يطلع على مصادر الأدب واللغة وأن يعيش تجربة الجندية الإجبارية، وكلا التجربتين فتحتا وعيه على الحياة ، وربما نبه ذلك ذهنه وعقله ووجدانه لما يعيشه شعبه ، ودفعه ذلك إلى الانخراط في الحركة الإصلاحية ، ففي الثلاثينيات اتصل بالشيخ (عبد الحميد بن باديس) وتأثر بأفكاره وآرائه الإصلاحية، ولعل هذه الصلة القوية يؤكدها ما ذكر من أن الشاعر أرسل في وفد إصلاحي إلى باريس، من أجل الدعوة إلى مبادئ جمعية العلماء الإصلاحية، ولا شك أن هذه الرحلة إلى باريس وبقاءه بها مدة طالت أو قصرت، قد تركت بصماتها على نفس الشاعر، وعلى حياته العملية والأدبية، ومما لا شك فيه أن شاعرنا قام بدور هام في بث الأفكار الإصلاحية بين الجالية الجزائرية، بل وبين الجاليات العربية في فرنسا، وبالتعريف بالقضية الوطنية في حدود ظروفه ومسؤولياته.

ويذكر أن الشاعر كان يسافر من وقت لآخر إلى فرنسا وبالذات إلى باريس قصد العمل وذكر لنا (أحمد بن عاشور) جانبا من نشاط الشاعر كما ورد في مقاله الآنف الذكر حيث يذكرنا بأنه كان مع الشاعر في باريس سنة 1938م، وأن هذا الأخير ألح عليه في حضور أحد الاجتماعات التي كانت تنعقد في (جمعية التهذيب) وكان يشرف عليها الشاعر ويسيرها، وقد تأسست

هذه الجمعية سنة 1936م وبلغت نواديها ثمانية، يؤمها الجزائريون ، وأبناء المغرب العربي في المساء ، وفي الليل يتعلمون فيها العربية ومبادئ الإسلام.

و لكن يبقى الغموض في فترات إقامته، سواء في الجزائر أو في فرنسا، فإذا كان (بن عاشور) يحدد تاريخ لقائه بالشاعر في ربيع 1938 فهذا يعني أن الشاعر سافر قبل ذلك، ولكن لا ندري متى؟،هناك من القصائد ما يشير إلى أنه أرسلها من بلدة (باريقو) "المحمدية " سنة 1937م، فقد عاش فيها فترة وكان يرسل قصائده منها، كما عاش أيضا في " قالمة" مع أبيه فترة، وهل كان يتاجر أو يعلم؟ لسنا ندري بالضبط ماذا كان يعمل في المحمدية في تلك السنة، كذلك فإن قصائد أخرى أرسلت من قلعة بني عباس بين هذا التاريخ وبين أفريل 1938م، و قد كتب فيها قصيدة « بعد النوى» يعبر فيها عن شعوره بعد رجوعه من " الغربة"، أي من فرنسا.

فهو فيما يبدو سافر في سنة 1937م، ورجع في السنة التالية لها، ثم عاد بعد ذلك إلى فرنسا. و في قصيدته هذه كان يخاطب وطنه بعد عودته وهي قصيدة طويلة يعبر فيها عن حبه لوطنه وشوقه إليه.

أيا وطني أتيتك بعد فقدي دفنت بأرضي غربتي الشبابا(7)

وكانت غربته غربة في بلاد العدو. لا يحس فيها سوى بالنقص و التشرد، ومفارقة الأهل والوطن والأحباب. فهو في إحدى قصائده يعبر عن حنينه ولهفته إلى بلاده في قصيدة « أنة من وراء البحر» ويدعوا الله أن يعجل بأوبته لوطنه:

يا رب عجل لنا منها بأوبتنا إلى الجزائر أفق اليمن والكرم(8)

وفي قصيدة أخرى يؤكد عزمه على السفر « زورة الوداع»، ولا غرابة في ذلك، فالبعد عن الوطن ولو لأيام، يدفع المرء العادي إلى التعبير عن شوقه. والواقع أن الشاعر كان يعاني من اغتراب الجسد في أرض العدو، كما كان يعاني من اغتراب روحي وعاطفي ، ولعل قصائده في الحب والرثاء للمرأة والشوق للحبيبة تشي بتجارب عاطفية قاسية مر بها مبارك جلواح تركت أثرها في حياته وأدبه. قد أحب مرتين كما جاء في شعره، مرة في "مستغانم" وأخرى في "باريس" وأخفق فيهما معا، ولا ندري السبب في ذلك هل يعود إلى الموت، أم أن الفراق كان لأسباب اجتماعية.

أما عن حقيقة موت الشاعر فهناك من يقول أنه تعاطف مع هلتر ومع الألمان حين حكموا باريس شأن كثير من الجزائريين الذين رأوا في انتصار ألمانيا على فرنسا تحريرا لهم من الاستعمار الفرنسي، لكن هل انتقم منه الفرنسيون بعد اندحار ألمانيا، أم أن موقف الشاعر يتعدى أكثر من ذلك إلى العمل ضد الفرنسيين فجاءت فرصتهم للانقضاض عليه ولكن متى تمت صلته بألمانيا- إن حدث ذلك - فهل قبل التجنيد أم بعده ؟ هذه أسئلة لا نجد من يجيب عنها لأنه كان بإمكان الفرنسيين أن يحاكموه سواء قبل التجنيد أو بعده، ومع هذا يبقى الشك قائما.

وهناك رأي آخر يختلف عن السابق في سبب موت الشاعر، وقد لا نجد له تفسيرا مقنعا مما يذكره البعض مثل " رزاقي". وهو وأن كان وارد و قريبا من الحقيقة يجعل الموت سببه الانتحار.

ممـا يبدو أن الشاعر كان يقاسي من آلام الغربة مما أثار في نفسه أشياء غريبة وانتابه قلق شديد فثبت في أعماقه ثورة جامحة ضد الحياة قادته إلى نهر السين، حيث ألقى بنفسه ومات غريقا.

والنتـيجة هـنا يمكن أن نسلم بها، فالموت انتحارا، وهذا جائز، من خلال ما يشي به شعره، فالمـرء لا يتحدث عن الانتحار بسهولة وبساطة إلا إذا كان خامره هذا الشعور وتمكن منه، وغاص في أعماقه، ولا سيما إذا كان شاعرا متوترا متشائما ثائرا متمردا كشاعرنا جلواح الذي عاش ظروفا قاسية من شتى الوجوه العاطفية والاقتصادية والسياسية والحضارية إضافة إلى ما كان يمتاز به من حساسية مفرطة، ونفس شفافة، وقلب خفاق بالحب، وطموح كبـير فـي الحياة، وقد أخفق في الحب والطموح وفي تحقيق بعض الآمال ولهـذه الأسـباب وغيرها مما يأتي يمكن القول بأن الانتحار ليس مستحيلا بالنسبة لهذا الشاعر بل إنه أقرب إلى الحقيقة، وحتى يتأكد هذا الرأي نغوص في أعماق الشاعر، ونتتبع أفكاره ونستشف ما تحمله من قنوط ويأس وتشاؤم ثم ما توحي به قصائده من نهاية وتصرح به من عزم على الانتحار. والذي يـتجلى بشكل واضح هو أن الشاعرمبارك جلواح تمنى الموت في العيد من المواضع في شعره قبل أن يقرر الانتحار، ويتعلق به ويقصد إليه في خاتمة حـياته، فبالرغم من شبابه الفتي، يطلب الموت، ويخاطبه في قصيدة "وداع الوطن" فيقول :

أيها الموت هل تبل أواما أتلفت من أواره أكبادي(9)

وإذا كـان هنا يتمنى الموت، فإنه في مكان آخر يطلبه ويبين السبب فهـو قـد سـئم مـن الحياة ويدعو الموت لينقذه مما هو فيه من غم ومحنة وترجاه مستجيرا به، ولائذا بحماه في قصيدة "مارج اليأس" حيث يقول:

يا موت هذا زمـامي يا موت خذ بالزمـام
إني سئمـت حيـاتي في ذي الدنا و مقامي(10)

ونجد أن الأمنية تتطور فلا تصبح موتا عاديا لأنه لم يأت، ولم يلب طلـــيه ودعوتـــه، وإنمـــا يـــبدأ التفكير في الانتحار، ما دام التمني والترجي والاسترحام، لا تكفي باستدراج الموت إلى المجيء ، ويتبين ذلك في قصيدته "وتـــر الانتحار". ففيها تراوده فكرة الانتحار، ويسجلها لأن تجاربه فشلت في كل شيء ولأنه ما عاد يأمل في شيء. فهو حين يخاطب الوتر، إنما هو في الحقيقة يرسم نهايته الحزينة:

يا أيها الوتر المرن تـــرى   من رنـــة تدني بها وتـــري
فلقد صبوت إلى الترنم يا   وتر الخلاص بلحن محتضر. [11]

ويصرخ في جوارحه بأن الملجأ الوحيد هو الانتحار حتى لا يستمر في التعاسة:

من التعاسة أن يفارقني   هذا الترنم غير منتحر

وحين طغى اليأس عن نفسه وقرر الانتحار، وعزم على أن يشرب من كأســـه حـــتى النهاية، كتب قصيدة يصرخ فيها محاورا نفسه ، راثيا أحلامه التـــي ضاعت، و طموحه الذي تحطم على صخرة الحياة، يُشهده على الناس وتـــنكرهم، والأصدقاء ونفورهم منه، وعلى الأحباب الذين فروا منه بالموت أو بالحـــياة، فضاق بنفسه وضاقت به الحياة، فعزم على الانتحار، نلحظ هذا في قصيدة "ليلة على شاطئ لاسين" في قوله:

عذرا إذا رمت الرحيل لقد بدا   فلق الصباح كصفحة الصمصام
فلعلني ألقى ببعض معامــــل   عمـــلا بمورده أبـــل أوامـــي
ويكون موعدنا، مساء غد إذا   شاء المهيمن في هنا وسلام [12]

فالشـــاعر هـــنا يؤكد بأنه كان يتردد على النهر في أوقات كثيرة، كما يؤكد أنه كان يعيش في ضنك شديد، ويبحث عن لقمة العيش في المعامل التي قـــد تساعده على أن يحافظ على رمق الحياة وهذا يبرر شيئا آخر، وهو أن الشـــاعر لم يصدم فقط في حبه وطموحه وأحلامه السياسية، ولم يصدم في أصدقائه وفي الناس فحسب ، ولكنه أيضا كان يعاني من الفقر والتشرد، فهو إذن معـــذور إن انـــتحر، يرجو العذر من النهر ومن الأصدقاء ومن الأحبة خاصـــة إذا كـــان المرء مثل الشاعر، يعيش ظروفا قاسية ويتمتع بإحساس مـــرهفة، واســـتهانة بحياة تكرر فيها فشل متواصل، وقصيدة " زفرة منتحر علـــى ضفة السين" تصور في جلاء قناعته بالانتحار وعزمه عليه وقد كتبها أمـــام الـــنهر فيما يظهر، ويلتجأ إلى النهر وإلى أمواجه يبغي الخلاص مما يعاني من يأس قائل:

يا سين جئتك في ذا الليل ملتما — بعرض لُجِّك إخمادا لأنفاسي
خلي القلى جانبا وابسط إلى كبدٍ — حرى، وقلب معنًّى راحة لآسي
فإني لا أرى في غير مائك مـــا — به تطهر أوْضَــاري و أرجاسي
ولا أرى فيك تلك الموائج من — حمى به احتمي من دهريَ القاسي(13)

فالشاعر قرر عزمه على الانتحار ولم يجد سوى هذا النهر يدفن فيه همومه ويغتال فيه أحزانه بيديه، بعد أن أغتال الآخرون مشاعره وأماله لذلك بين الأسباب التي دفعته إلى الانتحار.

وهكـــذا يـــتأكد الـــرأي الذي نميل إليه، وهو أن الشاعر انتحر فعلا لظروف كثيرة ودواعي مختلفة أشرنا إلى بعضها، ويبقى الحديث عن ديوانه فهـــو المرجع المهم لمن يريد أن يدرس هذا الشاعر دراسة موضوعية علمية وأدبية.

ب/ الاغتراب في شعرمبارك جلواح:

لمبارك جلواح ديوان شعر عنوانه: «*دخان اليأس*». ويبدو أن صاحبه هو الذي أطلق عليه هذا الاسم، وأنه كتبه بخط يديه. أما حجمه فمتوسط تبلغ صفحاته حوالى مائة وثلاث وسبعين صفحة، ولكن انتزعت منه صفحات كثيرة تزيد على العشرين، نزعت قصدا فيما يظهر، وأسقطت من النسخة الوحيدة التي أثبتها الأستاذ (عبد الله الركيبي)(11).

وبالديوان ما يقارب من ستين قصيدة ذات أحجام مختلفة، منها الطويلة، والمتوسطة والمقطوعة والقصيرة، (ورزاقي) يقول:إنها تبلغ المائة، وأنها لخسارة فعلا أن تضيع أكثر من أربعين قصيدة، سطا عليها الفضوليون الذين لا يقدرون عاقبة ما فعلوا. و الواقع أن المؤلف نشر بعض إنتاجه في الصحف الوطنية والعربية ولو جمعت لكونت ديوانا ضخما جيدا في مادته وأسلوبه واتجاه صاحبه.

أما الخط الذي كتب به الديوان فهو خط نسخي يقترب من الخط في المغرب العربي في كثير من السمات،مثل التنقيط. فالفاء تنقط واحدة من أسفل والقاف تنقط من فوق وهذا يدل على أن المؤلف متأثر بالخط المعروف في بلدان المغرب، وإنه لخسارة للأدب العربي الجزائري أن يفتقد شاعر مثل جلواح مات في ريعان شبابه كان يمكن أن يدفع الشعر الجزائري المعاصر إلى الأمام ويساعد على تطوره أسلوبا ونظرة وفكرة، فقد مات هذا الشاعر وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين في رأي، أو الخامسة والثلاثين في رأي آخر، وهذا السن تمثل بداية النضج لا قمته ونهايته، وصحيح أن كثيرا من الشعراء في العالم العربي و في العالم كله، قد فاجأهم الموت وهم في سن الفتوة والشباب، مثل (طرفة) و(الشابي) و(بيرون) و(شيلي) و(شيلر)

و (لوركـــا) وغـــيرهم، ومع هذا تركوا شعرا ناضجا، وإنتاجا غزيرا، ولكن شـــاعرنا فاجأه الموت في ظروف كانت فيها الجزائر إليه أحوج وإلى شعره وجرأته أظمأ تلك الجرأة التي افتقدناها في كثير من معاصريه على الأقل.

« دخان اليأس» يكشف عن نفس قلقة متشائمة. فقد استطاع جلواح بواســطته هذا الديوان أن يوجز خلاصة تجاربه، ومن هنا يبرز وعيه في اختيار العنوان الذي يعد مفتاح أو مدخلا أساسيا لإدراك تجربته الشعرية، كما نلاحــظ انه خيط واضحا يربط عناوين قصائد الديوان ربط نفسيا وشعوريا. يكشف عن معاناته القاسية.

أمـــا القصيدة التي تحمل عنوانا ملفتا للانتباه في الديوان فهي قصيدة «مارج اليأس» وهذا العنوان يعد محور لكل العناوين السابقة، فهو قريبا جدا مـــن اســـم الديوان «دخان اليأس»: لقد ورد في لسان العرب [15] أن المارج « هو الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد » أو «اللهب المختلط بسواد النار». من هنا تبرز علاقة التشاكل بين هذا العنوان واسم الديوان.

فاليأس كان شعلة ملتهبة في عنوان القصيدة بينما قد أصبح دخان في عنوان الديوان، أي أن معاناته قد بلغت درجة قصوى من العذاب، حتى نفسه المشـــتعلة أصـــبحت عـــبارة عـــن دخان. والدخان مؤشر على وجود النار والعذاب، وما تحمله من دلالات مؤلمة ومفجعة.

1- اغتراب الحب:

اعتمد الشاعر مؤشر الحب كدلالة سيميائية يجسدها ذلك الإحصاء لألفـــاظ المعجـــم الشعري، حيث بلغت (85) لفظة وهي نسبة ضئيلة إذا ما قورنت بالمقومات السيميائية الدالة على الغربة وهذا راجع إلى ذلك الانكسار النفســـي الـــذي أطاح بذاته، وأشعل فؤاده فلم يحصد سوى الآلام والجراح.

فانتحب له الفرح، وخيم عليه الضجر في وقت كان فيه بحاجة إلى من يضمد جراحه، لأنه عانى الفشل في تجربته مع الحب.

ونجد أن الشاعر قد عبر عن هذا بقوله:

صريع الجوى هلا التجأت إلى النوى ... فكم يعصم السلوان(*) في كنف البين
واشتغلت منك النفس عن زخرف الهوى ... بما في العلا يدنيك عن رفعة الشأن
فما مثل حب المجد أفضح في الورى ... لما لهم تخفي الصبابة من ضغن
وليس كحب المجد أكشف للذي ... تسر من الكيد النساء و من مين(16)

يظهر في هذه الأبيات الشعرية تشاكل (الجوى) مع (النوى) لأنهما يمثلان حالة عاطفية والتي تتجسد في معنى العشق، لأن الجوى له معنى الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن والهوى دلالة على الميل والعشق.

ويتبين من هذا صورة القلب المعذب للشاعر والمفجوع حتى الأعماق بضياع حبه وأحلامه فلم يبقى أمامه سوى المناجاة والشوق والوحشة والأسى والبكاء، عن مأساته التي غدت واقعا سوداويا لتلك العواطف الثائرة فجشأت كالمرجل الشديد الغليان.

وداعا غرامي قد يئست ومن تخب ... دواما له الآمال في الحب ييأس
فأول حبي في سما مستغانم ... طوى نجمه الهجران في جنح حندس(*)
وآخر حبي قد فقدت هلاله ... بباريس في حي الفؤاد المقدس
فلم يبق لي بعد هذين منية ... تحبب قلبي في مراشف لعس(*)
وهل بعدما قد خبت في سبل الهوى ... وغض بأزهار الشبيبة مكتسي
تحدثني نفسي بأن أبلغ المنى ... وقد آن أن أبدو بظهر مقوس
محال فقد ولى الرجاء فما على ... فؤادي سوى رفض لكل تهجس.(17)

2- الأسى والتشتت الوجودي:

احتلـت سـيميائية الأسـى عند الشاعر جلواح المرتبة الأولى: في المعجم الشعري بثلاث مائة وثلاثين لفظة (330) وهذه الكثرة تعتبر مؤشرا سيميائية عن تلك النفسية المضطربة القلقة ويتمثل هذا في قوله:-

تغذي بآلام الضعـاف وتستقـي	بدمع به قد تذرف التعساء
وتلبس لكـن ما يغير شبابهـم	لجسمك ثوب رائق وكساء
وتطرب لكـن ما بغير بكائهـم	زأناتهم أنشودة و غنـاء
وتغفـو لكـن ما بغير هنائهـم	وطاء ولا غير العزل غطاء
وتمشي ولكن ما بغير عظامهـم	فعال ولا غير الجلود حـذاء

يصـدر جلـواح -في تأملاته- عن نفس ضاقت ذرعا، فأخذ يصور أحزانه فالغربة وصد الأهل وحس مأساوي جعلوه يطرق طويلا ويحاور قلبه -دائمـا- الذي سجن في الحياة وهذا يمثل نظرة الشاعر المتشائمة، وهذا ما عبر عنه في قصيدة أخرى عنوانه«صحراء الوجود»

حمـام أم تنـور أو بركـان	يشوى به الإنسان و الحيـوان
أم أنت يا هذا الوجود جهنـم	يصلى لظاها الخلق و الأكـوان
بل أنت صحراء ما بها ضرع ولا	زرع ولا ظل ولا ريحـان
مبسوطـة في لا نهائيـة لهـا	سر تولى كتمه الديـان
محدودة شرقـا بخضـراء بها	لسنى الحياة ونارها دخـان
وبحدهـا الغربي خضـم زاخر	بالهالكين لموجه ثـوران
وعلى حدود جنوبها تبدو لنـا	لحمى المقادر والقضا خلجـان
وعلى الشمال لها شواهق فوقها	قد يستريح الدهر والأزمـان.(18)

يطرح جلواح الوجود في صورة خيالية، ابتداء من العنوان «صحراء الوجـود»، وما تحمله كلمة صحراء من دلالة سيميائية على "الضياع والحر

والجدب". ثم أعطى دلالات سيميائية لهذا الوجود. كلها نار على نار بحيث لا زرع فيها ولا ضرع" وفاقدة لكل مقومات الحياة، وهكذا جاءت صورة الوجود عبارة عن صحراء قاحلة مؤججة باللهب. وبالتالي تتشاكل صورة الصحراء مع صورة الوجود (صورة النار) لأنها تجسد الإحساس الحاد بالتيه والتمزق الذي كان يعانيهما الشاعر في الغربة.

وقد استوحى الشاعر هذه الصورة من واقعه المشتعل بنار الحروب وضرام الاستعمار، فكل شيء يثبت أن الوجود جحيم يصلى نارها كل المخلوقات من حيوان وطير وأسماك. فهذه النظرة تمثل ذروة الأسى في الحياة، ونلاحظ أن هذا التشاكل يوحي بدلالة الانتشار أكثر من الانحصار لأن كل عناصر الوجود تكون مع بعضها كتلة من النيران المشتعلة، وتفسير هذا أن الشاعر لا يصور الواقع وإنما الفكرة الكامنة في أعماق شعوره كما يراها وكما يحسها بعواطفه، وهذه الصورة الخيالية تنتمي إلى واقعه الخاص ممثلا في أفكاره وتصوراته الممتزجة بعاطفته ومشاعره، وهي مشاعر الإحساس بالجدب والضياع.

ومن هذا المنطلق تعد هذه الصورة تجريدية لأنها "صورة يتبادل فيها الحس والفكر والمادي والمعنوي وتنهار فيها الحواجز بين الواقع وما وراء الواقع. فلا يعود ثمة وجود إلا لبصيرة الشاعر التي

3- هاجس الموت:

تأتي الألفاظ الدالة على الموت بمختلف صيغها في المرتبة الثالثة إذ بلغ عددها مائة وأربع وثلاثين لفظة (134) وهذه الكثرة تكشف عن معاناة الشاعر الحقيقية مع تجربة الموت ولعل أبرز نموذج يبرز ذلك قصيدة «على مصرع الأمل»:-

وقل كيف طعم الموت ماذا وجدته أمامك في الظلماء ذي الحفرات
وكيف وجدت السابقين من الورى افي يقظة أم في وطا الغفـــوات
و هل فيهم من يندبون صحابهـــم ويرجون جمع الشمل بعد تشتات
أبن لي غيوب القبر: أم قد تركته وحيث سبيل النـــورت للنيــــران[19]

نلاحـــظ ذلـــك التشاكل القائم على الاستفهام في معنى الحيرة و القلق والشك ويتجسد في مخاطبة الميت" بفعل الأمر (قل) دلالة على شدة التعطش لمعرفة خفايا عالم الموت، لكن تشاؤمه المطلق جعله يشك في كل شيء لذلك يكـــرر فعل الأمر (أبن) دلالة على الإلحاح في الطلب، وبالتالي يكشف عن إحساســـه الشـــديد بـــالألم فـــي واقعه الذي يعيش فيه غريب الأهل و الوطن و الـــنفس، ومـــن ثم فهو يتطلع إلى العالم الآخر، عله يعوض هذا الإحساس القاتل بإحساس آخر يبعث الطمأنينة ، فيقول في قصيدة "مارج اليأس":

يا موت هذا زمـــــامي يا موت خذ الزمـــام
إني سئمت حيـــــاتي في ذي الدنا ومقامي
تبا لها من الحيــــــاة محشوة بالسمـــــام
ما في الورى غير بؤس لشـــاعرين كـــــرام
قد ذاب جسمي روحـــي فلتذهبـــي بســـــلام.[20]

إن تجـــربة انـــتظار الموت عند جلواح، تجربة قاسية و عميقة، لأنه لا يطيق أن يعيش حياته معذبا، مخفقا في أحلامه، ومع أن الموت تجربة قاسية راح الشاعر ينشده لأنه رأى فيه الخلاص من آلامه وجراحه.وهذا ما جسده في قصيدة "وتر الانتحار" إذ يقول فيها:–

إني سئمت من الوجود ومن حمق المسا و غبـــاوة البكـــر
وسئمت من كيد الحياة ومن إحن القضا وضغائـــن القـــدر
وسئمت من هزء الرجاء ومن هزل المنى وتهاون الضجـــر

وسئمت من عبث الشبيبة بي وعبوس ذاك الشـيب للبصر.(21)

تجسـد هـذه الأبـيات ذلك التشاكل القائم على تكرار ويتمثل في أن الشـاعر كـرر الفعـل (سئمت) أربع مرات متتالية في صدر أربعة أبيات وورودهـا يؤكـد الجانب الإيقاعي، ليس في امتداد فحسب، بل في مستواه الصـوتي، لكـن الذي يمعن النظر جيدا في هذا التكرار يدرك حقيقة ودوره سـواء فـي تأكـيد معـنى السأم الذي بلغ ذروته عند الشاعر، أو في البناء الموسيقي، لأنه في هذه القصيدة بصدد عزف لحن الأسى والسأم.

ومن هذا المنطلق يكون تكرار **(سئمت)** بمثابة وحدات موسيقية قائمة بذاتهـا. تشكل انسجاما موسيقيا لا غنى عنه لعزف سيمفونية الأسى والسأم أي سأم الشاعر من الحياة ويأسه من البقاء فيها.

وهـذا التشـاكل يحمل دلالة الانحصار لأن حالة الأسى والسأم هي نتيجة لقنوط الشاعر وعما وصل إليه من يأس فلم يبق له سوى وتر الانتحار يـدق في أعماقه، ومن ثم أيقن أن المنفذ الوحيد هو الانتحار حتى لا يستمر في الشقاء.

يقـول الفيلسوف الألماني (شوبنهاور): "لست أدري لما نرفع الستار عـن حـياة جديدة، كلما أسدل على هزيمة أو موت؟ لست أدري لما نخدع أنفسـنا بهـذه الزوبعة التي تثور حول لا شيء ؟ حتام نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي؟ متى نتدرع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حب الحياة أكذوبة وأن أعظم نعيم للناس جميعا هو الموت !"(22)

فالحـياة عـند جلـواح تقع بين طرفي الموت، لأن الفناء هو البداية والنهاية. وقد تجلى هذا في الشكل التالي:

موت	حياة (..........)	موت

إن جلــواح مــن الذيــن دقوا باب الانتحار وعرفوا سيمفونية الموت وأصــبحوا لا يــرون سوى الفناء لأعمار ضاقت ذرعا بحياة ملؤها المآسي والأحزان.

فكان الشاعر يصرخ دائما بكل معاني القلق والتشاؤم واليأس والحزن وأنين مبعثه الإحساس بالإحباط.

الهوامش:

(1) بوكوشة: هو حمزة شنوف، المدعو حمزة بوكوشة ولد سنة 1907 بوادي سوف، متحصل على شهادة ليسانس في الحقوق سنة 1971 وهو شاعر وناقد وكاتب مقال "أدبي وصحفي".

(2) ذكر ذلك الشيخ عبد الرحمن وهو شاعر ضرير من عزابة في مقابلة بقسنطينة وقال لي: أن الشاعر كان معتزا بانتمائه العربي.

(3) البصائر عدد 65 السنة الثانية : 1949/1/31.

(4) عبد الله ركيبي، جلواح من التمرد إلى الإنتحار، الشركة الوطنية، للنشر والتوزيع الجزائر 1986.

(5) عبد القادر الميجاوي، 1849-1914 م ولد بتلمسان وهو مؤلف و أستاذ و إماما ومصلحا في أكثر الحالات.

(6) المصدر السابق.

(7) الملحق ص 52

(8) الملحق ص 28

(9) الملحق ص 40

(10) الملحق ص 62

(11) الملحق ص 30

(12) الملحق ص 35

(13) الملحق ص 23

(14) عبد الله ركيبي- جلواح من التمرد إلى الانتحار ص 107.

(15) ابن منظور لسان العرب. دار صادر بيروت، مادة مرث. مج 6 ص 35.

(16) ديوان ص 15.

* السلوان : دواء يسقه الحزين فيسلوا والأطباء يسمونه المفرح. وفي التنزيل العزيز "وأنزلنا عليكم المنى والسلوى".

ابن منظور : لسان العرب، دار صادر بيروت (مادة : سلهب)

(17) الديوان ص 7

* حندس: الحندس : الظلمة وفي الصحاح : الليل الشديد الظلمة

ابن منظور : لسان العرب، دار صادر بيروت مج: 2 مادة : حندم ص 129

* لعس: اللعس: سواد اللثة والشفا وقيل العس والعسة سواد يعلو شفة المرأة البيضاء

ابن منظور : لسان العرب، دار صادر بيروت مج: 5 مادة : لعع ص 503.

(18) الديوان ص 39

(19) الديوان ص 3

(20) الديوان ص 62

(21) الديوان ص 30

(22) د.شلتاغ عبود شراد، تطور الشعر العربي الحديث الموضوع،- المضامين- الفن عمان، ط1 1998. ص 256.